مملكة الحيرة — آثار ثالثة / آثار الاشلال

- الموقع : تقع الحيرة على بعد ٥كم الى الجنوب الغربي من مدينة الكوفة وعلى مسافة ١٠كم جنوب شرق النجف ، وهي تشغل الجزء الجنوبي الغربي من القسم الشمالي للسهل الرسوبي ، عند الاطراف الشرقية لبادية الشام ، وانشأت مدينة الحيرة القديمة في منطقة سهلية ما بين نهر الفرات وبحر النجف . وكان نهر الفرات يتفرع عند اطرافها الى فروع عدة تأخذ منه جداولها وترتوي بتلك المنطقة .

- التسمية : يرجع بعض الباحثين اسم الحيرة الى اصل عربي من الفعل حير اي اقام او انها مشتقة من كلمة الحير ، ويرى اخرون ان الاسم مأخوذ من الحمى او الحظيرة ، ومنهم من يرى انها آرامية الاصل مشتقة من كلمة حيرتا التي تعني المخيم او المعسكر .

الأثارية

- التنقيبات الاثرية : نقبت الحيرة من بعثات تنقيبية عدة منها بعثة البريطانية من جامعة اكسفورد عام ١٩٣١ وبعثة من دائرة الاثار والتراث منذ عام ١٩٤٥ ولسنوات متقطعة ، ثم بعثة يابانية منذ عام ١٩٨٦ ولم تعد . وقد اسفرت تلك التنقيبات في منطقة الحيرة مجموعة من العمائر التي امتدت بموازاة الساحل الشرقي لبحر النجف

- عوامل النشوء والازدهار : لقد كان لنهر الفرات وتفرعاته اثر كبير في خصوبة التربة ، فضلا عن كونه مصدرا مهما لاولى شروط الاستقرار وهو توفر المياه ، اضافة لذلك موقع الحيرة الجامع بين البداوة والحضارة جعل من ارض الكوفة من اغنى المناطق الزراعية في العراق ، وقد استغل الفلاحون نهر الفرات وتفرعاته لنقل حاصلاتهم وتصريفها الى الاسواق ، وقد اشتهرت الحيرة بزراعة الكثير من المنتجات الزراعية مثل الحنطة والشعير والرز . كما اعتنى اهل الحيرة بتربية الحيوانات كالخيول والابل والاغنام .
كما كان لاهل الحيرة صناعات متنوعة مثل صناعة النسيج ، كما اشتهروا بصناعة السلاح كالسهام والرماح والسيوف .

Scanned by CamScanner

وكان لموقع الحيرة على طرف البادية الوسطى اهمية كبيرة بالنسبة لحركة القبائل العربية بين الجزيرة العربية والعراق مما ساعد على انتعاشها اقتصاديا، ففي ظل ازدياد طلب البيزنطيين على بضائع الهند وجنوب الجزيرة العربية، جعل العراق حلقة وصل مهمة تربط اقاليم المتوسط بالهند، وكان لاهل الحيرة نصيبهم الوافر من هذه التجارة، ولتسهيل نقل البضائع كان لابد من وجود طريق بري تتبعه القوافل يمر بمصادر المياه وفي ارض صلبة بعيدة عن الرمال المتحركة وتقع المناطق الواقعة غرب النجف ضمن منطقة الحيرة صالحة تماما لطريق القوافل من والى الجزيرة العربية وبلاد الشام، وزادت اهمية هذا الطريق في العصر الاسلامي حيث اصبح طريق الرئيس للحج لاهل العراق والمشرق والمسمى بدرب زبيدة. ودليل على اهمية المدينة التجارية ان اهلها تعاملوا بالنقود الذهبية التي هي نقود اهل الشام والبيزنطيين وبالنقود الفضية التي هي نقود اهل العراق وذلك لتوسطها بين الدولتين المتعاملتين بهذين النقدين.

السكان والتاريخ السياسي:

الحيرة مدينة عربية وحكم موقعها المتميز والمنفتح طبيعيا على بادية الشام اصبحت من اهم المعابر لهجرات اقوام الجزيرة العربية فقد استقبلت اقدم الهجرات وفي مقدمتها الهجرات الجزرية (الاكدية والامورية والارامية) وكذلك الهجرة العربية الاسلامية التي كانت امتدادا للهجرات السابقة لاسيما تلك التي شهدتها المنطقة في زمن ملوك الطوائف (الملوك المرتزقين)، وكان من نتائجها اقامة دولة المناذرة وعاصمتها الحيرة.

يكتنف تاريخ الحيرة قبل الميلاد الكثير من الغموض لعدم وجود نص كتابي يشير الى زمن تاسيس الحيرة سوى بعض الاشارات الواردة في بعض المصادر العربية القديمة التي ترجع الحيرة الى زمن الملك البابلي نبوخذ نصر الثاني الذي جلب القبائل العربية وبنى لهم حيرا على النجف وحصنها لتكون ضمن نفوذه. اما معلوماتنا عن الحيرة في القرون الميلادية تصبح اكثر وضوحا وذلك بفضل التنقيبات ونتائجها وكذلك ما ذكره المؤرخون

والبلدانيون العرب من معلومات عنها، اذ اصبحت الحيرة مركزاً حضرياً رئيساً في العراق واصبحت مدينة عامرة في مطلع القرن الثالث للميلاد عندما اتخذت عاصمة لمملكة المناذرة.

السلالات الحاكمة: برزت في المنطقة سلالتان عربيتان كانت لهما السيادة في غرب نهر الفرات ومنطقة الحيرة خاصة وهما السلالة التنوخية والسلالة اللخمية.

أ- السلالة التنوخية: التنوخيون: هم جماعة من قبائل عربية عدة اجتمعت في البحرين وتحالفوا وتعاهدوا على الوحدة فيما بينهم واغتنموا ما وقع بين ملوك الطوائف من اختلاف فاجمعوا على السير الى العراق فصار في الحيرة جمع كبير من القبائل العربية. ونتيجة تحركات هذه القبائل في العراق تأسست السلالة التنوخية، وكان اول ملك فيها هو مالك بن فهم الازدي وجاء بعده عمرو بن فهم ثم تلاه جذيمة الابرش وكانت مملكته في الحيرة والانبار وامتدت الى هيت وحاول ان يمد نفوذه الى منطقة البحرين حيث والى بادية الشام غرباً، الا ان حياته السياسية انتهت بمقتله على يد الزباء كما تروي المصادر العربية القديمة. ولم يترك جذيمة الابرش من يخلفه على الحكم فانتقلت السلطة الى ابن اخته عمرو بن عدي اللخمي.

ب- السلالة اللخمية: يعد عمرو بن عدي على راس سلالة اللخميين في مملكة الحيرة وينسب اليه بناء المدينة واتخاذها عاصمة لدولته ومقراً لسلطته، جاء بعده امرؤ القيس واشتهر من بعده النعمان الاول صاحب الخورنق، وعظم شأن الحيرة ايام المنذر ابن ماء السماء الذي قاتل البيزنطيين في سوريا، وخلفه ابنه عمرو بن هند وسقطت الاسرة اللخمية في عهد النعمان الثالث بن المنذر الذي اغتاله ملك الفرس كسرى أبرويز فثار العرب لمقتل ملكهم وهاجموا التحصينات الفارسية حتى هزموا الفرس في معركة ذي قار، وقد ذاع صيت هذا الانتصار في جميع انحاء الجزيرة العربية، وتشير المصادر العربية ان الحيرة في العصر العربي الاسلامي اخذت بالانحسار بعد ان تم

قصر مدينة الكوفة من قبل سعد بن ابي وقاص ، غير انه كبير لم تندثر واستمر فيها العمران بسبب وقوف اهلها السلبي السالب للعرب عن تعمير العراق حتى ان خالد بن الوليد اتخذها قاعدة له لمدة عام لاتمام مراحل التحرير قبل توجهه الى بلاد الشام . وقد بقيت كبيرة مأهولة بالسكان طيلة العصرين الاموي والعباسي حيث نزل فيها ابو العباس السفاح وابو جعفر المنصور وزارها الخليفة هارون الرشيد . وفي القرن الرابع للهجرة بدأ سكانها بالتناقص فتفرق الكثير منهم في البلاد ولم يلبث ان دب الضعف في مبانيها بسبب هجمات القبائل الطامعة بها وتحول مجرى نهر الفرات المجاور للكوفة الى مجرى نهر الحلة .

البقايا الحضارية في الحيرة .

لقد اظهرت التنقيبات الاثرية في منطقة الحيرة عن مجموعة من المعالم كما ان المؤلفات التاريخية ذكرت عدد اخر من المباني في الحيرة وقد تم تقسيمها الى معالم دينية والتي تمثلت بكنيستين تم الاشارة اليهما سابقا ، اما المعالم الدنيوية فقد تم العثور على بناية واسعة تتألف من طابقين تحيط بها سلالم وسطى مكشوفة وتقع غرفها الرئيسة في الطابق العلوي ، وقد اجريت عليها ترميمات متعددة امتدت حتى العصور الاسلامية وربما تكون هذه البناية بيتا كبيرا او قصرا . وقد ذكرت المصادر التاريخية العديد من القصور التي كانت في مدينة الحيرة واهمها قصر الخورنق (١) الذي يعتقد انه تألف في بعض اجزائه من طوابق عدة وكذلك ذكر قصر السدير (٢) وقصر الزوراء (٣) وغيرها

الطراز الحيري

واشتهرت الحيرة بطراز عماري خاص بها عرف بالطراز الحيري الذي يتألف من العصر وهو الجلوس المتلائ والكمين والمتوى والكم الايمن على خزانة الكسوة وفي الكم الايسر خزنت انواع من الثياب .

كما كشفت التنقيبات الاثرية في الحيرة عن مباني كانت تزينها الزخارف الجصية نفذت وفق طريقة الحفر الغائر . واقتصرت على الموضوعات النباتية مثل عناقيد العنب واوراق العنب وكذا الصنوبر والمراوح النخيلية وورديات واوراق صغيرة كانت تؤطر بأشرطة ذات زخارف هندسية .

Scanned by CamScanner

جوانب من حياة سكان الحيرة

- الحياة السياسية في دولة الحيرة:

استند ملوك الحيرة في حكمهم على قبائل عربية عدة تحالفت مع بعضها وكان ملوك الحيرة في حقيقتهم زعماء تحالف قبلي، وكان الملك هو القائد العسكري لهذه القبائل، وعلى الرغم من كل المظاهر الملكية التي احاط بها ملوك الحيرة انفسهم، فقد ظلت روح القبلية حية في داخل هذا النظام، كما ظلت حية ايضا التقاليد الديمقراطية (الشورى) وروح الجماعة واحترام رأي الشيوخ وصلة الرحم.

- الحياة الاجتماعية في دولة الحيرة:

كان اغلب سكان دولة الحيرة من العرب وكذلك من النبط وهم من بقايا العراقيين القدماء كالبابليين والكلدانيين والاراميين وكانوا يتكلمون اللغة الآرامية.

- الحياة الاقتصادية في دولة الحيرة:

ان موقع الحيرة وخصوبة تربتها وتوفر المياه فيها اوجد الظروف الملائمة للازدهار الاقتصادي في مجالات الزراعة والتجارة والصناعة والخدمات فقد وفرت غلات الاراضي الزراعية دخلا جيدا لاصحابها فضلا عما يقدمونه للدولة من خراج.

ومن ابرز النشاطات التجارية التي مارسها سكان دولة الحيرة تجارة النقل اي (الترانزيت)، فكانوا يعملون على نقل البضائع التي تأتي من اقصى الشرق كالصين والهند عبر الخليج العربي الى سوريا وبلاد الروم واليونان كما كانوا ينقلون منتجات العراق وما يرد اليه من سوريا وبلاد الروم.

وقد برع اهل الحيرة بصناعات عدة من اشهرها صناعة النسيج وكذلك برعوا في صنعة الحدادة وكذلك صناعة الاواني والخزف والصناعات الغذائية

- الحياة الدينية في دولة الحيرة:

كانت العصبية السائدة بين اغلب سكان دولة الحيرة هي الوثنية اي عبادة آلهة متعددة ومن ابرز الآلهة هي العزى التي كان تمثل بجمجمة راعي (البقرة) او عشتروت عند العراقيين القدماء، وكان ملوك الحيرة يقدمون

Scanned by CamScanner

لها التنور والقرابين، كما عرفوا عبادة الله العزى، ولم تصلنا معلومات حول الهياكل او طقوس العبادة في الحيرة.

وفضلا عن الوثنية فقد وجد في دولة الحيرة من يدين باليهودية، وهناك اشارات الى وجود اتباع للديانتين الزرادشتية والمزدكية في الحيرة خاصة بين الفرس الذين كانوا يقيمون فيها.

كما ان المسيحية وجدت لها اتباع في دولة الحيرة في القرن الخامس م. وقد استطاعت المسيحية ان تتكسب الى صفها بعض ملوك الحيرة كالنعمان السابع والنعمان بن المنذر، وقد ساعد ذلك على انتشار الاديرة والكنائس والمدارس المسيحية في دولة الحيرة.

وكانت اللغة العربية هي اللغة السائدة بين سكان دولة الحيرة فضلا عن وجود اللغة الارامية والسريانية. وقد تطلبت الحياة المدنية والثقافة في دولة الحيرة إنشاء المدارس، فكان لدى اليهود والنصارى وربما غيرهم ايضا مدارسهم التي تعلم القراءة والكتابة واصول الدين والفلسفة.

Scanned by CamScanner